الباب الثالث

الفصل الأول: كيفية التعامل مع الأخلاق

ترويض الأخلاق
نسبية الأخلاق

الفصل الثاني: منظومة تربية القيم والأخلاق

كيف نتعلم الأخلاق
كيف نعلم أطفالنا الأخلاق
كيف نقيم صرح الأخلاق

obeikan.com

ترويض الأخلاق

إن المقصود في هذا المبحث ليس تغيير الخلق أو تبديله أو إزالته ، وإنما تغيير مسلكه ووضعه في مكانه ، فإن كثيراً ممن جاهدوا أنفسهم وأرهقوها في سبيل التخلص من خلق ما ، وقعوا في عواقب غير محمودة ، ونتائج غير مرجوة ، إما بالعود الأشد ، أو بالوقوع في شراك البدع ، ولم يظفر أكثرهم بتغييرها .

ومن خلال بحثي في كيفية التعامل مع الأخلاق الذميمة ومعالجتها، لم أجد أفضل من مفهوم ابن القيم لها وتعامله معها في كتابه القيم (تهذيب مدارج السالكين).فقد أوضح من خلال مثال رائع كيفية تعامل الناس مع الطباع والأخلاق وأنجح الطرق في التعامل معها:

فدعونا نستعرض معه المثل :

يقول ابن القيم : هذا فصل يصل به السالك مع تلك الأخلاق . ولا يحتاج إلى علاجها وإزالتها . ويكون سيره أقوى وأجل وأسرع من سير العامل على إزالتها .

وقد ضرب العالم الجليل ابن القيم مثلاً على ذلك فيما معناه: (مع التبسيط).

نفترض أن هناك نهر جار ينتهي مصبه ومنحدره إلى أرضٍ وعمران ودور يهددها بالإغراق ، وأصحابها يعلمون بخطر ذلك النهر على دورهم وأراضيهم فانقسموا قسمين : قسم لم يعطي له بالاً فتركوه

حتى أهلكهم وخرب دورهم وأراضيهم ، والقسم الآخر : انقسموا إلى ثلاث فرق :

فرقة صرفت قواها في حبسه فبنت سداً وبناء لإيقافه ، فلم تعلم هذه الفرقة بأن ذلك يجعله يوشك أن تتجمع مياهه فيفيض ويصبح خطره أعظم.

وفرقة رأت هذه الحالة وعلمت أنه لا يغني عنها شيءاً. وقالت لا خلاص من ذلك إلا بقطعه من ينبوعه، فأبت الطبيعة عليهم ، وكلما سدوه من موضع نبع من موضع آخر ، فاشتغل هؤلاء بشأن ذلك النهر عن الزراعة والعمارة وغرس الأشجار.

وفرقة ثالثة خالفت الفرقتين ، وفكرت بحكمة فارتأت أن الفرقتين أضاعوا كثيراً من مصالحهم ، فأخذت في تغيير مجرى النهر المنتهي عند العمران ، وصرفوه لموضع ينتفعون منه ولا يتضررون به ، فصرفوه إلى أرضٍ قابلة للنبات وسقوها به ، فأنبتت العشب والكلأ فكانت هذه الفرقة هي أصوب الفرق .

وإذا طبقنا هذا المثل على الأخلاق والطبائع ، لوجدنا أن أخلاق النفس إنما تقوم على أساس دافعين ، دافع الشهوة ، ودافع الغضب ، أما دافع الشهوة فلكي يجلب به الإنسان لنفسه المنافع ، وأما دافع الغضب فلكي يدفع به الإنسان عن نفسه الضرر، فإذا انحرف هذان الدافعان عن مسلكهم ، فإنه يتولد عن ذلك كافة الأخلاق الذميمة.

وإذا افترضنا أن هذان الدافعان هو ذلك النهر، ومصبه منتهي لعمران القلب الذي إذا تركت هاتين القوتين لخربت القلب وأتلفته ، فانقسمت النفوس إلى ظالمة جاهلة ، وتركت هذا النهر ومجراه فخربت قلوبها وإيمانها .

وأما النفوس الزكية فقد فطنت لما يؤول إليه أمر هذا النهر فانقسمت إلى ثلاث فرق :

فرقة أعرضوا عنها ، وشغلوا أنفسهم بالأعمال ، ولم يتركوا هذه القوى لتهدم دورهم وعمرانهم ، بل حصنوا أنفسهم ببناء السدود وإحكام البناء حتى إذا وصل النهر أخذ يميناً وشمالاً ،فهؤلاء صرفوا عزيمتهم وإرادتهم في العمارة وإحكام البناء .

وفرقة ثانية وهم الذين انقطعوا للمجاهدات الشديدة والخلوات عن الخلق ، أرادوا قطع النهر من ينبوعه فأبت عليهم الطبيعة التي خلق الله عليها البشر ، فأصبحوا في حربٍ دائمة مع أنفسهم ، وهؤلاء صرفوا قواهم إلى مجاهدة أنفسهم على إزالة هذه الصفات ، فزل أكثرهم .
بيد أن هذه الفرق قال عنها بعض الشيوخ أن آفات النفس مثل الحيات والعقارب التي في طريق المسافر ، فإذا أقبل في تفتيش الطريق عنها والاشتغال بقتلها انقطع ، ولم يمكنه السفر قط ، ولكن ليكن هدفك إكمال السفر والإعراض عنها ،وعدم الالتفات إليها ، فإن أعترضك شيءا منها فاقتله ثم أكمل المسير.

أما **الفرقة الثالثة** فقد علمت أن هذه الصفات إنما يمكن الاستفادة منها من طريقٍ آخر ، بل نظرت إليها على أنها لم تخلق في النفس هباء بل يمكن أن تكون درر مكنونة ، فصرفوها إلى حيث تنبت الثمار والأشجار ، وأبقوا عليها في نفوسهم .

ومثال على ذلك عندما رأى النبي ﷺ أبا دجانة يتبختر بين الصفين . فقال : « **إنها لمشية يبغضها الله ، إلا في هذا الموضع** » . الطبراني

وفي حديثٍ آخر « **إن من الخيلاء ما يحبها الله ، ومنها ما يبغضها الله . فالخيلاء التي يحبها الله : اختيال الرجل في الحرب** » .أبو داوود

فهنا أصبحت الصفة المذمومة محمودة في ذلك الموضع عندما وضعت في مصرفها الصحيح، بل أصبحت عبودية أيضاً.

وخلاصة رأي ابن القيم أن الخلق الذي نعتبره ذميماً ليس المطلوب منا قمعه والتخلص منه بالمرة ، ولكن المطلوب هو تصريفه في مكانه الصحيح .

obeikan.com

نسبية الأخلاق

إن الأخلاق كمصطلح يندرج تحته الأخلاق المحمودة والأخلاق المذمومة، فهل يمكن أن تكون الأخلاق المحمودة مذمومة والأخلاق المذمومة محمودة ؟

الجواب: نعم، إن الخلق يمكن أن يكون حيادي، ويحكم عليه الموقف نفسه ولكن....! كيف؟

إن هذه الفقرة هي تكملة لما قبلها وتوضيح للصورة الكاملة للإلمام بمفهوم الأخلاق والمقصود به ووضع كلٍ في موضعه الصحيح، أو وضع الأمر في نصابه ، فليس الإسلام هو تطبيق مجرد للسمات والصفات البراقة في مظهرها فحسب ، وإنما الإسلام هو دين الحكمة من ربٍ حكيم ، ووضع كل خلق في ميزانه الصحيح .

فالحياء مثلاً هو خلق جميل أثنى عليه النبي ﷺ ، ولكن إذا استخدم الحياء في موضع يتطلب الجرأة أصبح مذموماً ، فمثلاً إذا منع الإنسان من السؤال في العلم أو الدين ، وأيضاً إذا سكت عن الحق بحجة الحياء ، فهذا الموضع يكون الحياء فيه مذموماً ، والجرأة مطلوبة ، لأنه بذلك سيحيل الإنسان لشخص سلبي وجبان ولا يستطيع أن يطالب حتى بحقوقه.

openkan.com

وخلق الأناة والتروي من الممكن أن يكون مذموماً في وقت يتطلب العجلة والشدة أحياناً مثلما في حالة إنقاذ إنسان أو إسعاف مريض.

وخلق القناعة هو خلق محمود في الزهد عما في يد الآخرين، وعدم التكالب على مفاتن الدنيا والمال، ولكنه يصبح مذموماً إذا قنعت باليسير من العلم مثلاً وأصبحت محدود الطموح بحجة القناعة، وستكون دعوة للتراجع والجمود.
وأحيانا يكون التظاهر بالجبن والخوف من ضمن خطة لتضليل العدو والانتصار عليهم، مثلما أظهرنا لليهود في إسرائيل قبل حرب ٦ أكتوبر ٧٣ وهزمناهم شر هزيمة بعد ذلك.

وإذا تركنا تأديب أطفالنا وقسونا عليهم أحياناً من باب الرحمة والرفق ، لانفلت زمامهم ولم نستطع السيطرة عليهم ، وأضعناهم . وأيضاً إذا تراخينا في حد من حدود الله بدافع الرحمة .

وإذا تأملنا أسماء الله الحسنى لوجدنا من أسمائه سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم ، والقوي القهار... العفو الغفور ، المنتقم الجبار...والنافع الضار، والمعطي الوهاب والمانع ...والقابض الباسط ، الخافض الرافع...والمعز المذل .

فإذا نظرنا لأسماء الله الحسنى بفكرٍ قاصر لقلنا كيف يكون الله جباراً وهو الرحيم، وكيف يكون منتقماً وهو العفو، وكيف يكون مانعاً وهو المعطي.

obeikan.com

ولكـن عندمـا نعلـم أن مـن أسـمائه أيضـاً الحكيـم الحكـم العـدل ، و تدبرنـا بعقـلٍ واعٍ لعلمنـا مغـزى وحكمـة كل صفـة واسـم مـن أسـماء اللـه الحسـنى، وكيـف يتعامـل مـع خلقـه في كل موقـف باسـمٍ مـن أسـمائه الحسـنى بمـا يصلحـه ويقومـه ، والإنسـان الموصـول باللـه تعـالى إنمـا يجعـل صفـات اللـه تعـالى أصـلاً يشـتق منـه أخلاقـه .

وقـد كان النبـي ﷺ خـير مثـال وقـدوة عـلى هـذه الحكمـة في التعامـل بالأخـلاق ، فقـد كان وهـو أرحـم الخلـق وأرأفهـم عـلى الإطـلاق، ومـع ذلـك كان يقيـم الحـد ، ويقطـع أيـدي الرجـال والنسـاء المخالفـين لـشرع اللـه ، ويـضرب الأعنـاق ، ويرجـم بالحجـارة حتـى المـوت، فـكان لا يتهـاون في حـقٍ مـن حقـوق اللـه.

وأيضـاً في صلـح الحديبيـة عندمـا وافـق النبـي ﷺ على شروط قريـش في الرجـوع والحـج في العـام التـالي ، والهدنـة عـشر سـنوات ، حتـى أن عمـر قـال لأبي بكـر : ألسـنا عـلى الحـق ،قـال: نعـم قـال أليسـوا عـلى الباطـل : قـال : نعـم ، قـال: فلـم نـرضى الدنيـة في ديننـا ؟ وكان بسـبب ذلـك الصلـح أن دخـل في الإسـلام الكثـير، وفتحـت مكـة بعـد ذلـك.

وهـو نفسـه الـذي وقـف في وسـط المعركـة في غـزوة أحـد بعـد نـزول الرمـاة مـن عـلى الجبـل وانقـلاب المعركـة ضـد المسـلمين ، وقـد وقـف في منتهـى الشـجاعة ينـادي ليجمـع المسـلمين « أنـا النبـي ﷺ لا كـذب، أنـا ابـن عبـد المطلـب ».

إن أغلـب الذيـن تحدثـوا عـن الأخـلاق سـواء كانـت كتبـاً أو محـاضرات أو نـدوات فـإن كل اهتمامهـم كان الحديـث عـن الأخـلاق المجـردة ، ظنـاً منهـم أن المجتمـع مـليء بالرذائـل والأخـلاق السـيئة ،

فلا سبيل للإصلاح إلا بمقابلة هذه الأخلاق بعكسها والعمل على استئصالها ، ومن هنا بدأ الصراع واتسعت الفجوات .

فعندما يجد الناس أن صاحب الأخلاق هو من تنهب حقوقه ، وتنهش أعراضه ، ويذل ويهان ،ويتعرض للمشاكل والصعاب،فإن المفاهيم تضطرب ، والموازين تختل ، وينقسم الناس لقسمين إما أخيار ولكنهم لا يستطيعون مجاراة الشر فانزووا وابتعدوا وفضلوا الخلوة والنجاة بأنفسهم ، وإما أشرار اعتبروا الأخلاق ضعف وجبن وضياع للحقوق ، ابتدعوا لأنفسهم أخلاقاً جديدة بمسميات جديدة ليريحوا ضمائرهم ، فأصبح الكذب تجمل ، وأخذ حقوق الناس شطارة، والرشوة قضاء مصالح ، والكبر والتعالي والخيلاء من صفات الأقوياء والأغنياء، والتواضع والتسامح ضعف وجبن.

بينما ظل هناك التائهون بين هذا وذاك وهم أغلب الناس يتخبطون بين هؤلاء وهؤلاء ، ويتحيرون بين ما هو خطأ وصواب.

ولكننا إذا فهمنا الدين على حقيقته، لعلمنا أن حسن الخلق هو وضع كل خلق في موضعه الصحيح، وأن سبب هذا الهرج والتخبط هو الجهل بحقيقة الحكمة في تقييم كل موقف ،والميل بالهوى دون التفكير بالعواقب.

ولقد وصف الله تعالى المؤمنين بأنهم :{ **أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين** }.المائدة ٥٤

فجعل الله العزة والمذلة أيضا من صفات المؤمنين.

وفي هذا المبحث نتعرض لمفهوم جديد في توصيف الأخلاق ألا وهو نسبية الأخلاق، فالأخلاق من صدق وكذب وحلم وغضب ورحمة وقسوة...إلى آخرها من الأخلاق تحتاج للنظر إليها من منظور آخر، فلكي تحكم على خلق ما بالحسن أو بالقبح فضعه أولاً في ميزان

النيـة ، فـإذا رجحـت كفـة النيـة الحسـنة فهـو خلـق حسـن ، وإذا رجحـت كفـة النيـة السـيئة فهـو خلـق سـيئ .

ولعـل أقـرب التعاريـف للخلـق الـذي تتفـق مـع هـذا المعنـى هـو تعريـف الجرجـاني (وقـد سـبق الإشـارة إليـه):

وهـذا التعريـف أيضـاً يتفـق مـع قـول النبـي ﷺ : « **إنما الأعمال بالنيات** » البخـاري ومسـلم

obeikan.com